من حديث الجهـــاد

للاستاذ على الطنطاوى

ركبت الترام أمس وكان ممتلئاً بالناس ، قد قعدوا على مقاعده ، ووقفوا فى رحباته ، وتعلقوا بسلالمه ، وكنت قاعداً فى الدرجة الأولى ، فرأيت امرأة ملتفة بملاءة على يدها ولد يظهر عليها أنها مسكينة مغلَّبة[١] تريد أن تدخل علينا ، فيمنعها رجل بلدى واقف بالباب ، ويقول لها : « دامش مكانك ، دا برِءو ، مكان الخواجات » فتستكين وتقف ، فدعوتها وأقعدتها فى محلى ، وهى حائرة لا تدرى فى خجلها وشكرها ماذا تقول لى ، وسار الترام إلى المحطة التالية ، فنزل ناس وصعد ناس ، وكان فيمن صعد امرأة فرنجية ضخمة كأن خديها زقَّان منفوخان ، وكأن ثدييها عِدلان على ظهر أتان ... وأقبلت تزحم الركاب بوقاحة عجيبة حتى دخلت علينا . فلما رأت المرأة قلبت شفتها ، وقلصت وجهها حتى صار كوجه قرد عجوز ... وحمَّلته كل ما استطاعت من أمارات الاشمئزاز والكبر ، وضمت ثوبها ترفعاً أن يمس الملاءة وأشارت لها بيدها ، أن : قومى ...

فنظرت المسكينة نظرة بلهاء ، وابتسمت ولم تفهم ...

فقالت لها : « دا برِءو ، انتَ بيروخ هناك ، يلا . يلا » ...

فقامت ... فلم أملك أن صرخت بها : « أقعدى » وقلت لهذه الوقحة : « ألا يكفى أنك زاحمتها على خبز بلدها ، وأكلت خيره من دونها ، وغنيت به وفقرت هى فيه ، حتى أردت أن تقيميها لتقعدى مكانها ... »

وكانت ثورة منِّى عاصفة ، فلم يجب أحد ، ولكن شاباً « مهذباً » استاء منى ، وأراد أن يعلن احتجاجه علىَّ ، فنهض قائماً وقال : « تفضلى يا مدام » وأعطاها مكانه ...

* * *

وذهبت أزور رجلا كبيراً ، اعتزل الناس فى بيته بعد أن ولج أوسع أبهاء القصور ، وحل فى أضخم كراسى المناصب ، وتشقق الحديث معه حتى بلغ الكلام على الإخوان المسلمين فقال : « إنهم سيتسلمون الحكومة يوماً ما ، ولكن المشكلة ، أنهم يريدون العودة إلى الحكم الإسلامى ، ومصر تمدنت وارتقت حتى صارت قطعة من أوربا ، فكيف يمكن أن ترجع إلى أحكام الشرع ؟ »

وسمعت كثيرين من رجالات العرب ، يتظرفون بدس الكلمات الفرنسية أو الانكليزية فى أحاديثهم العربية ، من غير داع إليها ، ولا فائدة منها ، ويجدون ذلك رافعاً من أقدارهم معلياً من منازلهم .

ورأيت كثيرين من الشباب تجيئهم بالحكمة أو النظرية فتعزوها إلى صاحبها الشرقى المسلم ، فيلوون وجوههم عنها ، ولا يحفلونها ، فإذا نسبتها إلى الفيلسوف الألمانى أو الأديب الانكليزى هشوا لها وبشوا ، وتلقوها بالتجلة والاكبار .

وقرأت لكثيرين من المؤلفين والباحثين فصولا فى الدين أو اللغة ، لا مرجع فيها إلا النقل ، ولا تنقل إلا عن أئمتنا وعلمائنا ، فرأيتهم يدعون المنبع ويستقون من ذيول السواقى ، ويتركون مراجعنا ويعزون إلى فلان وعلان من المستشرقين .

وليس فينا من لا يرى تقليد الأوربيين مدنية ، واتباعهم رقياً ، ومن لا يشعر فى قلبه بإجلالهم ، ويتمنى أن يزور بلادهم ، ويثقف ألسنتهم ، ويا ليت أنا إذ أحببناهم جمعنا حبهم ، ولم يفرقنا غرامهم شيعاً وأحزاباً لهم ، ويا ليت أنا ارتفعنا اليوم عما وصفه جبران خليل جبران ، منذ ربع قرن ، حين قال : « كان العلم يأتينا من الغرب صدقة وإحساناً ، فنلتهم خبز الصدقة لأننا جياع فأحيانا ذلك الخبز . فلما حيينا به أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ، ونبه عقولنا ، وأماتنا لأنه فرق كلمتنا ، وأذهب وحدتنا ، وقطع روابطنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد فى حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنم بمحاسنها وأمجادها . فالشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول إلى معتمد أمريكى ، والشاب الذى ارتشف رشفة من العلم فى مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذى لبس قميصاً من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا » .

* * *

(١) كذلك نقول نحن فى الشام ، وهى صحيحة فصيحة ، وفى مصر يقولون غلبانة

فإذا كنا — ولا نريد أن نماري في الحق، ولا نجادل في الواقع؛ إذا كنا نطوي قلوبنا على حبهم، ونضم جوانحنا على إكبارهم، ونرى أنفسنا صغاراً أمامهم، ونقلدهم في كل شيء ونمشي وراءهم، فماذا ينفعنا قولنا بألسنتنا إننا نكرههم ونعاديهم، ولا نقعد عن حقنا حتى ننالَه منهم برغمهم؟

لقد تعلمت في المدرسة الابتدائية حكاية لا أزال أذكرها إلى اليوم، هي أن رجلا كان يذبح العصافير في يوم بارد ويبكي، فقال عصفور منها لأخيه: ألا ترى إلى شفقة هذا الرجل ورقة قلبه؟ قال: ويحك لا تنظر إلى دموعه، ولكن انظر إلى ما تصنع يداه.

فهل تظنون أن الانكليز والفرنسيين أصغر أحلاماً من العصافير حتى يخدعوا بخطبكم وأقوالكم، ويعموا عما تصنع أيديكم؟

* * *

إن قضية فلسطين لم يجرمثلها ولا في أيام نيرون. ولو قرأناها في أخبار الأولين، لما صدقنا أنه يسوغ في إنسانية البشر، وعقل العقلاء، أن تقول لرجل: أخرج من دارك ليأوي إليها هذا المشرد المسكين، ونم أنت في الزقاق، أو اضطجع على المزبلة أو مت حيث شئت. هذا قضاء المدنية، وهذا حكم الديموقراطية.

وإن حوادث المغرب لم يقع مثلها ولا على عهد محاكم التفتيش أن يذبح عشرات الألوف من الأبرياء، لأنهم قالوا لمن دخل عليهم بلدهم، واغتصب أرضهم، وأكل خيرهم: اطعمنا معك من خيرات أرضنا، وارفق بنا في عدوانك علينا ...

فهل أحسسنا حقيقة ببغضاء الفرنسيين والانكليز؟ ألا يزال فينا من يثني على الانجليز في الصحف «تقريراً للحقيقة؟»، ويحتفل بدوهامل «تمجيداً للأدب؟»، ويودع المجندات الانكليزيات بالأسى «تقديراً للجمال؟»، ألا يزال فينا نوادٍ أقيمت لتثبيت الصداقة بيننا وبين هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفاعيل في فلسطين والمغرب؟

فكيف يجتمع الحب والبغض في قلب واحد؟

* * *

إننا في أيام لها ما بعدها، ومصائب تنسينا أواخرها أوائلها فإذا كنا جادين حقيقة في إنقاذ فلسطين والمغرب، وفي العمل لمصر وللعربية وللاسلام، وكنا نريد أن نكون أمة تستحق أن تعيش، فيجب أن نتخلص أولا من استعمار الأوربيين أدمغتنا وألسنتنا وبيوتنا، وأن نحكم عقولنا فلا نقتبس منهم إلا ما نعتقد نفعه لنا، وأن نثق بأنفسنا، ونشعر بكرامتنا، وأن يفهم الحاكم منا أن لنا شرعاً أفضل من قوانينهم، فيجب أن نقتبس الأحكام من شرعنا، وأن يعلم الطالب أن لغتنا أكمل من لغاتهم، وأدبنا أسمى من آدابهم، وتاريخنا أمجد من تواريخهم، وأنها لم تخدم أمة العلم ما خدمته أمتنا، وأن يعتقد التاجر أن من الفرض عليه أن يروج البضاعة الوطنية، ويقاطع الأجنبية التي تزاحمها، وأن يؤمن الأديب بأن لهذه الأمة حقاً على قلمه، أن يدافع عنها، ويعيد إليها كرامتها، وثقتها بنفسها، ويصغّر الأجنبي في عينها، وأن يفهم أخنع[1] رجل فينا، أنه أعظم من أكبر خواجة من الخواجات، أو (مستر) من المسارة أو (هر) أو (سنيور) من السنانير والهررة، وأن يعلم أنه هو صاحب البلد، وهؤلاء بين غاصب أو لص أو (شحاد)، وله هو مقعد الدرجة الأولى في الترام، وله الغرفة الأولى في الفندق، والمائدة الأولى في المطعم، وأنه حيثما يقنع بالاقل ويتوارى ويبتعد، ويدع الأجنبي يملك الأرض، والعمارات، والمتاجر، يكون مجرماً كالجندي الذي ينهزم من المعركة.

وملاك الأمر كله، أن نعلم أننا نحن أساتذة الدنيا، ونحن سادتها. عزتنا بقرآننا ودينا، ولا يزال القرآن مبعث عزّ لنا، فلنعد إليه، ولنجعله إمامنا في حياتنا، ومعقد فخارنا، ولندعُ الدنيا إلى اتباعه لأنه لا فلاح لها إلا به.

إننا اليوم أضعف من الغربيين في القوى المادية، فلم يبق لنا إلا القوى الروحية: قوة الإيمان، وقوة الأخلاق، وقوة العفاف فلنحافظ عليها، ولنحارب الإلحاد والنفاق والفجور، لأنها عون للعدو علينا، وسلاح له يعمله فينا، وأن نجرد للعدو جنداً أخرجوا حبّه من قلوبهم، وضلالاته من رؤوسهم، وعاداته من بيوتهم، وأبغضوه بغضاً بلغ الشغاف، وخالط الدم، وسرى في الأعضاء، وظهر في الأفعال. جنداً، صدورهم حافلة بالإيمان،

(١) أخنع: أقل وأوضع.